تشكلات المعنى في السرد
تطبيق على قصة " نظرة " ليوسف إدريس

د.علي عبد النبي إبراهيم فرحان

ahasan@ahlia.edu.bh

الجامعة الأهلية ، مملكة البحرين

الملخّص

النص السردي يمثل الرسالة والخطاب الذي أنتجه المؤلف في شروط ثقافية وسياسية وفكرية واجتماعية معينة، وسيتلقاه القارئ في شروط ثقافية وسياسية وفكرية واجتماعية محايثة لشروط النص والمؤلف أو متأخرة عنها.

يتشكّل المعنى في النصّ السّردي قبل الكتابة وأثناءها وبعدها.

وللمعنى صور متعددة لكن المعنى ليس منفلتًا، والسياق هو الضابط الدّلالي له.

يتوهمُ منْ يظنّ بأنّ السّرد أو المسرود ينجز معنى أحاديًّا، كما يتوهمُ من يظنّ أنّ المعنى لا يُنجزُ إلا بعد تمام السّرد، أو أنّ السّرد يقيّد المعنى بزمن إنتاجه فحسب.

المعنى في السّرد يتشكّل قبل السّرد، وفي ثناياه، وبعد تمام الكتابة السّرديّة.

فالمعنى – في صورته الأولى – يتشكّل قبل السّرد، فالحكاية تقيّد بالسّرد والمعنى مازال في أمشاج التّصورات والمعتقدات، وزاوية نظر الراوي وتبئيره لمرويه يشكّل المعنى الأولِي للسّرد.

التشكّل الثّاني للمعنى هو ما يمكننا أنْ نصطلح عليه – مبدئيًّا – بالمعنى المحايث للسّرد. وهو معنى يتشكّل مع بداية السّرد وفي أثناء سيرورته بصورة تراكميّة، وهو ما ينبني بصورة آليّة مع توالي البنية السّرديّة، منذ انطلاق السّرد حتى توقّفه.

التّشكّل الثّالث للمعنى هو المعنى المحمول في السّرد، أي المضمر الّذي لعبت الأنساق الثّقافيّة في بنائه.

التشكّل الرّابع للمعنى هو المعنى المتأوّل من السّرد، وهو معنى يخضع بدرجة كبيرة إلى قدرة المتلقي على كشف الانزياحات النّصيّة والثقافيّة، وقدرته على تفكيك النصّ وقراءته بصورة مغايرة.

نحاول من خلال هذه الورقة بحث تشكلات المعنى في النصّ السردي الحديث من خلال التطبيق على قصة " نظرة " ليوسف إدريس.

Summary

The narrative text represents the message and discourse produced by the author under specific cultural, political, intellectual, and social conditions. The reader will receive it under cultural, political, intellectual, and social conditions that are concomitant with, or subsequent to, the conditions of the text and the author.

Meaning is formed in a narrative text before, during, and after writing.

Meaning has multiple forms, but meaning is not uncontrolled; context is its semantic regulator.

Those who think that the narrative or the narrated accomplishes a single meaning are mistaken, as are those who think that meaning is only accomplished after the narrative is complete, or that the narrative restricts meaning to the time of its production only.

Meaning in a narrative is formed before the narrative, within it, and after the narrative is completed. Meaning, in its primary form, is formed before narration. The story is bound by the narration, and the meaning is still embedded in the fabric of perceptions and beliefs. The narrator's perspective and focus on the narrative constitute the primary meaning of the narrative.

The second formation of meaning is what we can term, in principle, the immanent meaning of the narrative. This is a meaning that takes shape at the beginning of the narrative and throughout its

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.854

progression, cumulatively. It is what builds automatically with the progression of the narrative structure, from the beginning of the narrative until its end.

The third formation of meaning is the meaning carried within the narrative, i.e., the implicit meaning in whose construction cultural systems have played a role.

The fourth formation of meaning is the meaning interpreted by the narrative. This meaning is largely subject to the recipient's ability to detect textual and cultural shifts, and their ability to deconstruct the text and read it differently. Through this paper, we attempt to investigate the formations of meaning in the modern narrative text through application to the story “A Look” by Youssef Idris.

كيف يشكّل السّرد المعنى ؟

مفهوم القصّة من دلالة اللّغة « قصَّ » بمعنى قطع وارد في تشكيل المعنى؛ فالقصّة (قطعُ) سياق المسرود من سياق الحياة، الّتي تبدأ بالميلاد عند الماديين وتنتهي بالموت، وعند أصحاب النظريات الفيزيقية تبدأ الحياة قبل الميلاد ولا تنتهي بالموت.

إذن هناك علاقة دلالية وواقعية بين مفهوم القطع والقصّ في المرجعية المعجميّة العربيّة لكلمة " قصّة " في المعجم العربي.

فمن الوظائف الّتي يقوم بها الراوي أنْ يحوّل الحكاية إلى قصة. أي يحوّل العابر إلى قارٍ مقيّد بالسّرد ضمن رؤية ما.

ما السّرد ؟

" السّردُ هو تمثيلٌ لأحداثٍ فعلية أو افتراضية متسلسلة زمنيًا." (برنس، 2012م) والسّرد هوَ التّجسيدُ الفنّيُّ للحكاية خلالَ الخطابِ عبرَ تقنياتٍ فنيّةٍ متعددةٍ، تُعيدُ ترتيبَ الأحداثِ، وتحددُ ظهورَهَا في الخطابِ وَفْقَ نظامٍ معيّنٍ.

وتمثّلُ الحكاية ترتيبَ الأحداثِ وَفْقَ وقوعِهَا قبلَ السَّردِ وخارجَ النَّصِ.

ويقوم السّارد بمهمة السّرد.

علاقة السرد بالواقع

يرى جمال الدّين بن الشّيخ في كتابه « ألف ليلة وليلة أو القول الأسير» الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، عام 1998م، تحقيق محمد برادة وآخرون؛ يرى أنّ السّرد الحكائي لا يحكي الواقع فحسب، بل يقيم تواصلا مع الرغبة.» ص 16. (الشيخ، 1998)

بهذا المعنى يخترق السّردُ الممنوعَ والمجرّمَ ليشكله في السّرد. أي أنّ السّرد يخرج المعنى من أتون الرغبة إلى واقع السّرد.

السرد اختيار في المعاني

السّرد – كونه نمطا من الكتابة – يساعد الذات الكاتبة على التجوال في أنظمتها الشعوريّة والفكريّة، ويعطيها الفرصة للإصغاء إلى الأجزاء المبعثرة فيها، وإعادة بناء هذه الأجزاء المبعثرة في نصّ يشغله المعنى، الّذي يستقرّ في شكل ليعود مراوغًا في شكل آخر من المعنى.

إنّ السّارد يعيد بناء الواقع وفق هذه العملية التجميعيّة التنسيقيّة في عالم يخضع لقوانين سرد السّارد لا لحتمية قوانين الواقع الخارجي وصرامتها.

والسرد " لغة تركيبية، تقوم أساسا على تركيب ينظّم التداخل والإخفاء، فكلّ نقطة من نقط السّرد تشعّ في اتّجاهات متعددة." (بارت، 1992م)

السرد بيت المعنى

« السّرد بيت المعنى وآلية إنتاجه في آن » (الريماوي، 2005)

في علم السّرديات يبدأ السّرد بعد اكتمال الحدث، وينتهي السّرد حينما تبدأ الكتابة.

والكتابة هي الّتي تشكّل المعنى ولا تقولبه؛ بل تمنحه وجودًا جديدًا في عالم اللغة وعالم الفكر قابلًا للتشكّل في ثوب جديد متى ما أتيح له كسر قيد النموذج ليتحرر نحو بناء شكل جديد ونموذج جديد آخر.

المعنى في الكتابة السّردية – حسب رأينا – قائم ومؤجّل في آن، فمتى قرّ في شكل ما تولّد منه معنى جديد.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.854

صراع الخطابات

النّصّ السّردي (السّرد مقيّدا بالكتابة): هو نتاج حالة من تزاحم خطابات متعددة تتصارع لاعتقال النّصّ، والسيطرة على مساره السّردي وحبكته النّصيّة لفرض قراءة سرّيّة على ملفوظاته البريئة شكلا والمتواطئة حقيقة؛ ولذلك ليس هناك نصوص سردية سلطوية بشكل نقي، بل إنّ كلّ النّصوص في معناها العميق جدليّة، يتعايش فيها خطاب القانون وخطاب الرّغبة، وكلّ واحد من هذين الخطابين يسعى للاستحواذ على النّصّ.

السرد وصور المعنى

يتوهمُ منْ يظنّ بأنّ السّرد أو المسرود ينجز معنى أحاديًا، كما يتوهمُ من يظنّ أنّ المعنى لا يُنجزُ إلا بعد تمام السّرد، أو أنّ السّرد يقيد المعنى بزمن إنتاجه فحسب.

أزعم في هذا المبحث أنّ المعنى يخلق في أكثر من مرحلة، وأنّه لا يتوقف عند تشكله بصورة قارّة.

من هنا أذهب إلى أنّ المعنى في السّرد يتشكّل قبل السّرد، وفي ثناياه، وبعد تمام الكتابة السّرديّة.

فالمعنى – في صورته الأولى – يتشكّل قبل السّرد، فالحكاية تقيّد بالسّرد والمعنى مازال في أمشاج التّصورات والمعتقدات، وزاوية نظر الراوي وتبئيره لمرويه يشكّل المعنى الأولِي للسّرد.

التشكّل الثّاني للمعنى هو ما يمكننا أنْ نصطلح عليه – مبدئيًا – بالمعنى المحايث للسّرد. وهو معنى يتشكّل مع بداية السّرد وفي أثناء سيرورته بصورة تراكميّة، وهو ما ينبني بصورة آليّة مع توالي البنية السّرديّة، منذ انطلاق السّرد حتى توقّفه.

التّشكّل الثّالث للمعنى هو المعنى المحمول في السّرد، أي المضمر الّذي لعبت الأنساق الثّقافيّة في بنائه.

التشكّل الرّابع للمعنى هو المعنى المتأوّل من السّرد، وهو معنى يخضع بدرجة كبيرة إلى قدرة المتلقي على كشف الانزياحات النّصيّة والثقافيّة، وقدرته على تفكيك النصّ وقراءته بصورة مغايرة. ولا يفهم من ذلك أنّ التّأويل أمر منفلت بل – كما يقول سعيد بنكراد – السياق ضابط دلالي وقد يكون المعنى متعددا.

التشكّل الخامس للمعنى هو المعنى المتراكم من سياقات السّرد في السّياق الثّقافي.

التشكّل السادس للمعنى هو المعنى المؤجّل، فالمعنى في السّرد نصّ مؤجّل يسوق إلى نصّ قارّ قابل لإنتاج معنى مؤجّل.

النتيجة هو أنّ المعنى يتشكّل في السّرد ويتأجّل لا على طريقة جاك دريدا بل على طريقة المعنى الّذي يولّد نصّا ينضوي على معنى مؤجّل.

تجربة المعنى في قصة نظرة

حتى لا يكون الكلام نظريًّا سنبحث عن المعنى في قصة « نظرة » ليوسف إدريس:

تتبعت في هذه القصّة ثيمتي النظرة والطفولة وما يتعلق بهما من وقلق وبراءة ، ولكنني قبل أنْ أستغرق في ذلك، وددت أنْ أسرد بشكل سريع تشكلات المعنى في هذا النصّ بإيجاز.

فهناك معنى تشكّل قبل السّرد حينما ازدحمت التّصورات والمعتقدات الشائعة والتصوّرات والمعتقدات الّتي يحملها السّارد قبل السّرد حول هذه الحكاية لتلك الطفلة العاملة والمجتمع الجشع الذي يسرق من هذه الطفلة طفولتها وبراءتها بينما من هم في مثل عمرها " **يهللون ويصرخون ويضحكون** ". كما أنّ هناك جدلية تصطرع لدى السّارد بين الواقع المرير وقيم الثقافة المدعاة. وهو ما نقله السّارد – بعدما سرد مرويه – فأقام صلة بين واقع معيش وتناقضاته ومفارقاته.

لقد اقتنص السّارد مشهدًا من واقع معيش تتبلور فيه تناقضات عديدة ومفارقات بين صورة القيم وتفاعلات الواقع وشكّله سردا.

أمّا التشكل الثّاني للمعنى فقد تشكّل مع السّرد (وهو مضمون الحكاية) منذ مفتتح القصة حتى توقف السارد عن السّرد.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.854

وقد شاء السّارد في هذه القصة أنْ يبني خطابه على عنصر التجربة الحياتية التي مرّ بها الراوي في تصادفه مع مشهد يتكرر كلّ يوم. وأنْ يكون شاهدًا ومتفاعلاً مع الحالة التي يرويها.

يبدو للوهلة الأولى أنّ ميلان الصينية هو المشكلة؛ لكن في واقع الحال؛ ليس الأمر كذلك؛ إنْ هي إلّا الشرارة أو المحرّك للسّرد؛ بمعنى أنّ الرواي ذكرها وليست هي المقصود في البنية العميقة للحكي.

من خلالها تتبني الفكرة الأعمق المتحورة حول معنى النظرة، والتي وردت في العنوان وفي ثنايا النص نكرة.

وفي ذلك دلالات سنشير إليها لاحقًا.

ومن خلال تتبعي لوصف الطفلة الظاهري المتعلق بهيئتها من بنية جسدية وهندام، وما يتعلّق بما يتكشف من وصف الراوي وسرده من قلقها وحيرتها وخوفها وحزنها على حرمانها من طفولتها، سأكشف عن باقي تشكلات المعاني المقترحة.

يسوقنا العنوان « نظرة » الاسم النكرة؛ الدّال على المصدر وعلى اسم المرة في آن إلى توارد معانٍ تتنافس في الإشارة إلى ثيمة النصّ المسرود قبل سرده.

ولتوضيح ذلك أقول: ورود كلمة نظرة نكرة أثار لدينا حالة من التشويق الخفي حول هذه النظرة المطلقة؛ فهي نظرة لن نعرف أنْ نشكّل لها معنى سوى المعنى المعجمي للكلمة أو المعنى الاشتقاقي الّذي يوحي بأحادية هذه النظرة كما يبدو من لفظة نظرة أي نظرة واحدة؛ ونظرة مصدر الفعل نظر.

قبل السّرد يتشكّل معنى لدينا لكنه ناقص أو لنقل بوجه أدق معنى غامض.

يسوقنا ذلك – إذن – إلى الولوج إلى النصّ كي يتشكّل لدينا المعنى في ثنايا السرد (وهو الدرجة الثانية من تشكّل المعنى)؛ وستشكل لنا معنى آخر بعد انتهاء السّرد.

عودًا على معنى العمل السردي وفعل السارد؛ نقول إنّ معنى ما تشكّل أو على أقلّ تقدير تخلّق عند الروائي، فبرز إليه في شكل حكاية ثم قرر أن يسرده في قصّة؛ ليتشكّل بعد ذلك خطابٌ سرديٌّ يحمل المعنى المراد.

هنا يتشكّل معنى؛ لكنّ الولوج إلى النصّ يشكّل أكثر من معنى.

الاستفتاح الّذي بدأ به الراوي لم يكن اعتباطيًّا « **كان غريبا أن تسأل طفلة صغيرة مثلها إنسانا كبيرا مثلي لا تعرفه، في بساطة وبراءة أن يعدل من وضع ما تحمله، وكان ما تحمله معقدًا حقًّا؛ ففوق رأسها تستقر "صينية بطاطس بالفرن". وفوق هذه الصينية الصغيرة يستوي حوض، قد انزلق رغم قبضتها الدقيقة التي استماتت عليه حتى أصبح ما تحمله كله مهددًا بالسقوط.**». إنّه يلخّص الحكاية، ويكشف عن (رغبة) السّرد، وزحام الخطابات.

لقد اختار يوسف إدريس براءة الطفولة المهدد بالحرمان أفقًا سرديًّا تنبثق منه حركة الحدث، ويشكل بؤرة السّرد.

فالطفولة المرموز لها بشخصيّة " طفلة صغيرة " بهذه الصيغة الاسمية النكرة (طفلة) الموصوفة بالنكرة (صغيرة) تنكيرًا دالًا على العموم ليشمل كلّ طفلٍ وطفلة، ومؤكّدًا عليها بالصفة المخصّصة (المعلوم أنّ الطفل يكون صغيرًا)؛ مع وعي من السّارد بهذا المقصد الّذي صرّح وألمح إلى صفاتها كلّها وأبرز أحوالها وأفعالها ولم يغفل أقوالها، وأخفى اسمها بأن جعل هذه الطلفلة بغير اسم؛ لينطبق الحال على كلّ طفلة؛ وجاء الخطاب القصصي منسجمًا مع المرامي النصيّة والمغزى (المعنى) المحمّل في طيّات النصّ ومقاصد خطابه.

فإذا مالت الصينية (وفي ذلك رمزية لميلان القيم عن ميزان الاعتدال) (أصبح ما تحمله كله مهددًا بالسقوط)؛ أصبحت قيم المجتمع كلها مهددة بالسقوط.

البراءة والطفولة في اختبار أمام قيم المجتمع المنجزة وقيمه المدعاة؛ يتحرّك المعنى في ثنائية الميلان والاعتدال ليكشفان حجم التهديد المحدق بالطفولة في بساطتها وبراءتها؛ حتى بات أنّ من الغرابة أنْ تسأل طفلة صغيرة مثلها إنسانًا كبيرًا مثلي.

تتحرّك الثنائيات الضدية في النصّ لتشكّل المفارقة المسلّط عليها الضوء (أو لنقل النظرة) في هذه القصّة.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.854

ثنائيات تتحرّك وتتّحد نحو مركز واحد؛ إنسان كبير يقابله طفلة صغيرة، اعتدال (أن يعدّل) يقابله ميلان، الضعف (صغيرة حيرى/ ما كنت أرى لها رأسًا ...) يقابله الجبروت (ستّي)، القلق والاضطراب يقابله حكمة الكبار، طفلة (في مهمة عمل) تراقب وجهها منكمش يقابله أطفال في مثل عمرها يلعبون ويضحكون ويهللون ويصرخون.

محور الحدث " نظرة "؛ الطفلة ألقت نظرة على الأطفال الذين يتقاذفون كرة المطاط؛ هذه النظرة تختزل الخطاب السردي وتجعله المركز؛ قد ينزاح العنوان لهذه النظرة التي تستجمع معنى المفارقة والحرمان واضطراب القيم في حياة قاسية.

ونظرة أخرى من السّارد تجاه طفلة بريئة سرقت منها طفولتها.

ونظرة ثالثة هي نظرة من جملة نظرات تحتاج إلى تأمّل؛ أي أنّ السارد كأنّه يقول لي في المجتمع المتناقض نظرات هذه واحدة منها.

المعنى: نظرة للتناقضات وفضحها وتسليط الضوء عليها دفعًا لمعالجتها وحلّها.

ستبقى القضية (عمالة الأطفال) قلقًا والمشكلة لن تنتهي؛ القضية مؤرقة وفي المجتمع قضايا كثيرة مشابهة؛ ومثل هذه الطفلة كثير " ابتلعتها الحارة " .

في هذه القصّة " نظرة " تشكّل المعنى قبل السّرد، من خلال رؤية السارد للعالم الخارجي (الواقع بما فيه من تناقضات)، وفي ثناياه، حينما قرر السارد أن يبئّر حدثًا بعينه (الطفلة التي مالت الصينية فوق رأسها)، وبأّر الأفعال والصفات والزمان والمكان، وبنى عالمه التخييلي ومتنه الحكائي؛ وبعد تمام الكتابة السّرديّة ليتولّد من خلال الخطاب المعنى الكامن في السّرد.

المعنى يتشكّل داخل السّرد جملة جملة، وتتراكم السياقات النصيّة يحيل بعضها إلى البعض الآخر فينبني معمار المعنى وفق رؤية الكشف في ثنائيّة براءة الطفولة \ عمالة الأطفال.

كلّ ما في النصّ يحيل إلى المعنى الّذي يستقر عليه النصّ في نهاية السّرد. (نظرة تكشف واقعًا متناقضًا)؛ لكنّ هذا المعنى الّذي يبدو أنّه استقرّ عليه السّرد يقود إلى معنى مؤجّل، بعد هذا التشكلات التي سقناها يبرز التشكّل الرّابع للمعنى، وهو المعنى المتأوّل من السّرد، وهو معنى يخضع بدرجة كبيرة إلى قدرة المتلقي على كشف الانزياحات النّصيّة والثقافيّة، وقدرته على تفكيك النصّ وقراءته بصورة مغايرة. ولا يفهم من ذلك أنّ التّأويل أمر منفلت بل – كما يقول سعيد بنكراد – السياق ضابط دلالي وقد يكون المعنى متعددا.

إذن المعنى سيتأجّل إلى قارئ آخر يلبسه ثوبًا آخر وهكذا دواليك.

من النصّ السردي يمكننا تأوّل معاني أخرى.

يتشكّل المعنى في رحم نسق ثقافي مضمر تحدده سياقات نصيّة وأخرى غير نصيّة، ذلك النسق المضمر – في اعتقادي – على مفهوم الرحمة الّذي يتوارى في تعامل السّت المالكة للفرن "ستّي"؛ ويبرز في شخصية الراوي.

والمعنى الأخير الّذي نتلمسه في هذا النصّ المعنى الّذي يتراكم من سياقات السّرد في السياق الثقافي، فالنص في سياق المدرسة الواقعية الجديدة الّتي تحفل بالواقع نقدًا وتصويرًا، وتركّز في قضايا إنسانية عامّة، كما يمكننا أنْ نجد المعنى في الكشف عن طبقات المحرومين على الطريقة الماركسية.

الخاتمة

النص السردي يمثل الرسالة والخطاب الذي أنتجه المؤلف في شروط ثقافية وسياسية وفكرية واجتماعية معينة، وسيتلقاه القارئ في شروط ثقافية وسياسية وفكرية واجتماعية محايثة لشروط النص والمؤلف أو متأخرة عنها.

يتشكّل المعنى في النصّ السّردي قبل الكتابة وأثناءها وبعدها.

للمعنى صور متعددة لكن المعنى ليس منفلتًا، والسياق هو الضابط الدّلالي له.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.854